من هنا يبدأ الطريق

قصة مستوحاة من مقال الأستاذة هدى بركات «كيف ننجو؟ — خريطة عبور آمن »

==========

في الليلة التي قررت فيها مريم أن تترك البيت، وضعت المفتاح في حقيبتها، ثم تذكّرت أنها لا تعرف إلى أين ستذهب.

لم يكن البيت خطرًا، لكنه صار ممتلئًا بأشياء تؤلمها: نظّارة يوسف قرب الكتب، ومعطفه خلف الباب، والكوب الذي كانت تضع فيه ملعقة سكر واحدة، وتجادله كل صباح لأنها تراها كثيرة.

مضت خمسة أشهر على وفاته. عاد الناس إلى أعمالهم ومواعيدهم، وبقيت هي تتعلّم أشياء لم تتخيل أنها ستحتاج إلى تعلّمها: إجراءات المعاش، وإصلاح سخّان الماء، والإجابة عن سؤال ابنها: «هل ستأتين مبكرًا؟» من دون أن تعده بما لا تستطيع.

كانت تسمع: «يجب أن تكوني قوية من أجل آدم.«

فتهز رأسها، ثم تبكي في المطبخ كي لا يراها.

وفي ذلك المساء، وجدتها أختها نادية جالسة قرب الباب، بمعطفها وحقيبتها.

- إلى أين؟

- لا أعرف. أشعر أنني إذا بقيت هنا فلن أستطيع أن أبدأ من جديد.

جلست نادية بجانبها، ولم تحاول نزع الحقيبة من يدها.

بعد صمت، قالت مريم:

- يوسف كان يعرف كيف يدبّر كل شيء. أنا لا أصلح لهذه الحياة وحدي.

نظرت نادية إلى الأوراق المتراكمة على الطاولة.

- ما الذي لم تستطيعي فعله اليوم؟

- ذهبت إلى الإدارة، وأخبروني أن الملف ناقص. عدت من دون أن أفهم الوثيقة التي يريدونها.

- إذن هناك وثيقة لم نفهمها. نبدأ بها غدًا.

كانت مريم مستعدة لسماع نصيحة عن الصبر، أو حديث طويل عن النسيان. أما أن يكون فشل يومها ورقة يمكن السؤال عنها، فقد بدا لها احتمالًا لم تفكر فيه.

في الصباح، أحضرت نادية دفترًا وفتحته على صفحتين متقابلتين.

قالت:

- أخبريني بما يثقل عليك، وأنا أكتب.

قالت مريم إنها تخاف أن تمرض، وألا تجد من يأخذ آدم إلى المدرسة. وتخاف نفاد المال. وتخاف أن تنسى صوت يوسف. ثم قالت، وهي تنظر إلى الأرض:

- وأحيانًا أخاف أن أضحك، فيظن الناس أنني نسيته.

كتبت نادية بعض الكلام في الصفحة اليمنى، وبعضه في اليسرى.

في الأولى ظهرت عبارات: «لن أقدر»، «إذا ضحكت فقد خنته»، «كل ما يأتي سيئ.«

وفي الثانية: «ملف المعاش»، «مصروف الشهر»، «مواعيد المدرسة»، «ساعات العمل.«

تأملت مريم الصفحتين.

- كلها مشكلاتي. لماذا فرّقتها؟

- حتى نعرف من أين نبدأ. غدًا أرافقك إلى الإدارة. وبالنسبة إلى المدرسة، أستطيع أخذ آدم يومي الثلاثاء والخميس. أما خوفك من الضحك... فأريدك أن تخبريني: هل كان يوسف يغضب حين يراك سعيدة؟

ابتسمت مريم، ثم بكت.

تركت نادية القلم على الدفتر وجلست أقرب إليها.

لم تتغير حياتها في ذلك الأسبوع، لكن نادية أوفت بوعدها. اكتمل الملف بعد زيارتين إضافيتين، ووافقت مديرة المدرسة التي تعمل فيها مريم على تعديل موعد انصرافها مؤقتًا. وعادت تأكل مع آدم بدل أن تطعمه ثم تكتفي بالشاي.

أما الخوف، فظلّ يأتي، خصوصًا عند النوم. وبعد ليالٍ متكررة من الأرق، حجزت موعدًا مع أخصائية نفسية.

في اللقاء الأول، قالت إنها لا تريد أن تحكي تفاصيل يوم الوفاة.

فبدأ الحديث بما يحدث الآن: الليل الطويل، والتعب، وصعوبة دخول غرفة النوم، وما تحتاج إليه كي يصبح يومها أيسر قليلًا.

كان يوسف يحب أصص الريحان في الشرفة. وبعد موته جفّت النباتات، وظلت مريم تمرّ بجانبها وتنظر في الاتجاه الآخر.

ذات صباح، اقترح آدم أن يشتريا شتلة جديدة.

كادت تقول: «في وقت آخر»، ثم سألته:

- واحدة فقط؟

حملها الطفل إلى البيت بكلتا يديه. وحين وضعها مكان الأصيص الجاف، شعرت مريم بوخزة مؤلمة، فأخذت الأصيص القديم إلى الداخل.

لم تعرف أين تضعه. أبقته قرب النافذة، وسقت الشتلة الجديدة.

بعد أيام، عثرت على تسجيل صوتي ليوسف. سمعت ضحكته في أوله، ثم أغلقت الهاتف، وعادت إلى فراشها حتى الظهر.

حين اتصلت نادية، قالت لها:

- ظننت أنني تحسّنت. عدت إلى البداية.

أجابت أختها:

- سأمرّ بعد العمل. هل أحضر معي الغداء؟

لم تملك مريم جوابًا عن البداية والنهاية، لكنها استطاعت أن تقول:

- نعم. وأحضري خبزًا، من فضلك.

بعد أشهر، اقترحت زميلة عليها الانتقال إلى شقة أصغر وأقل كلفة.

هذه المرة لم تحزم حقيبتها ليلًا. حسبت المصاريف، وسألت عن المدرسة، وزارت الشقة مرتين. ثم قررت البقاء حتى نهاية السنة الدراسية، ومراجعة القرار بعدها.

وفي مساء هادئ، فتحت الدفتر القديم. كانت بعض الأمور قد حُلّت، وبعضها تغيّر، وأخرى ما زالت تنتظر.

على صفحة بيضاء رسم آدم طريقًا ملتويًا بين بيت وشجرة. ثم ناولها القلم وقال:

- ضعي نقطة مكاننا.

رسمت مريم دائرة صغيرة قرب أول الطريق، وكتبت بجانبها: «نحن هنا.«

ومن الشرفة ناداها:

- ماما، الريحان طلعت فيه ورقة جديدة!

تركت الدفتر مفتوحًا، وذهبت لترى.

انتهت القصة